الإصدار السادس – العدد تسعة وخمسون
تاريخ الإصدار: 2 – أيلول – 2023م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

"مستويات القراءةِ الهيرمينوطيقية للنصِّ التراثيِّ عند "هانز جورج غادامير""

إعداد الباحثة:

د.عائشة جمعه الشامسي

جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي

الإصدار السادس – العدد تسعة وخمسون
تاريخ الإصدار: 2 – أيلول – 2023م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

الملخص:

يحاول هذا المقال تبيان قيمة هيرمينوطيقا غادامير في شرحها المفصل لمستويات الوعي الثلاثة، التاريخية والجمالية واللغوية، وإنها وإذ تعلي من قدرة البعد الفني على درأ التشويهات التي يراد إلحاقها بحقيقة النص التراثي، فهي وبالقدر نفسه تسعى إلى استقصاء استراتيجي لهيمنة التاريخ وسلطته المحتوية للفن وجمالياته، ولصلابة اللغة، وجدارتها لبسط الفهم، والتي تمكنها وعلى الدوام من مقاومة الزيف، ونقل الحقيقة كما هي.

الكلمات المفتاحية: التأويل، الهيرمينوطيقا، الفهم، فهم الفهم، المتلقي، التاريخانية.

التمهيد:

يتصل مصطلح الهيرمينوطيقا لغة " **بثلاثة معان أساسية هي التعبير، التفسير، والترجمة**" [1] ففي الترجمة كذلك تكون هناك تلك الهوة الشاسعة الفاصلة بين المترجم والنص الأصل المراد ترجمته.

إن الهيرمينوطيقا هي " **تعبير مستمر عن المعنى المحتجز في الفهم، وعن معنى هذا الفهم لذاته، وبذا لا يكون الفهم محض تكرار للماضي بل مُسهِمًا في صياغة معنى في الحاضر**"[2] وإن الهيرمينوطيقا عند غادامير تضطلع بوظيفة دراسة الفن بغية استنطاع مسألة الحقيقة وهذا بتحييد العلم ومنهجيته، يعلن غادامير قائلا "**مما يعني أن خبرة الفن تقدم لنا نماذج من الخبرة بالحقيقة لا يمكن للمنـهج العلمي أن يصل إليها وفق أطره و قواعده**" [3] وقد اقترح غادامير مستويات ثلاثة لهذا المسعى :

مستوى الوعي التاريخي، ومستوى الوعي الجمالي، بالإضافة إلى مستوى الوعي اللغوي وهو الوسيط الأهم الرابط بين المستويين التاريخي والجمالي.

---

[1] ينظر: عادل مصطفى ، مدخل إلى الهرمنيوطيقا : نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامير، ط 1، دار النهضة العربية ، بيروت– لبنان، 2003، ص 01

[2] ينظر: ديفيد كوزنز هوي، الحلقة النقدية، تر: خالدة حامد، منشورات الجمل، بغداد، ط1، 2007، ص81

[3] هانز جورج غادامير، تجلي الجميل ومقالات أخرى، تر: سعيد توفيق، المجلس الأعلى للثقافة، (دط)، 1997، ص07

1- دائرة الوعي التاريخي :

يتموضع النص داخل نطاق تاريخي ينتمي إليه عضويا، إذ أنه حاضنته الفكرية والجمالية، كما أنه المنشأ الحيوي له، وإن تأويل أي نص شعري تراثي بمعزل عن مجاله التاريخي إنما هو انتهاك صارخ لحقيقة هذا النص ذلك" **أن التاريخ فيما يرى غادامير ليس مجرد قصص وأشياء يتم سردها لأنها حدثت في الماضي، لكنه بالأحرى يحدد مجمل رحلة الجنس البشري عبر الزمن** "[4] فالتاريخ هو امتزاج ذلك المركب الإنساني المشكَّل من كل ما له صلة بالإنسان وما يحيط به، ليغدو النص في هذا المنحى عبارة عن التقاطات جزئية خاصة من جملة هذا المزيج المركب الكلي، واستلزاما عن هذا يصير التاريخ هو ما يمدنا به النص من معارف مغيبة.

هكذا يصير النص جزءا جوهريا من كُلٍّ تاريخي مُحتوٍ ومهيمن، وهذا على اختلاف درجات تجليات التاريخي على ظاهر النص.

إن النص التراثي وكما أنه يستجلب التاريخ "كما هو عليه"، ليستظهره مشيدا منه معبراً واقعيا ومبسَطا للولوج إلى جمالياته العميقة، فإنه يطيب له كذلك أن يتشكل حتى لدى المتلقي المطلع على التاريخ بمظهر يبدو منغلقا عن "التاريخ كما هو"، إنها تلك الحوارية الطبيعية التي تقوم بين التاريخية الخالصة وبين النص الذي يصبو إلى تحقيق جمالياته من خلال التعبير عن هيكله وعمقه التاريخي بشكل مخاتل، لكن هذا لا يبعده أبدا عن أن يكون نصا ينتمي إلى صلب تاريخه.

يبدو هذا الطرح ذا جدارة، لما للنص من تطلع في التملص من سلطة الخارج الإنساني ومن كل ما يتواشج معها، وهي رغبة ترمي إلى صياغة عالم نصي متمايز، يغري القارئ بمسلمات تدلل على اختلافه عن العالم الخارجي الذي يعرفه، إن النص يقوم مبدئيا على هذا التشكل الخيلائي الذي يقترح وعلى الدوام معارف وأذواق غير مألوفة مسبقا، حيث أن امتلاء النص بالتاريخي يحيله على أن تتم قراءته عبر إحالات معلومة ومخبورة، ولكن ولأنه لا مناص من وقوع القارئ تحت سلطة التاريخي أثناء قراءته فقد صار لزاما على النص إذ ذاك أن يقترن بالتاريخ بأي شكل من الأشكال، إيحائيا وإشاريا " **فإن كل فهم للتاريخ هو أيضا تاريخي، أي أن تأويلاتنا، هي نفسها جزء من تيار التاريخ نفسه**"[5].

إن انفلات النص من شكله التاريخي- وإن الكثير من النصوص لتصبو إلى ذلك بشكل ما كما أسلفنا- لن يكون سوى تمظهرات ما، تحدد بتحوراتها شكلا تاريخيا متواريا وملتويا يحيل بالتواءاته كلها وباختلاف مستويات شرودها إلى مسار تاريخي أوحد، كما أن أي تأويل لأي نص تاريخي هي متلبسة بسلطة التاريخي الكامنة فيه.

---

[4] عادل مصطفى ، مدخل إلى الهرمونيطيقا، دار النهضة العربية، ص 230

[5] فيددا جاسير ، مقدمة في الهرمونيطيقيا، تر: وجيه قانصو، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1،2007، ص 151 .

ISSN: 2663-5798

لكن أهم ما تجدر إليه الإشارة حقا هنا، هو تداخل سلطة الروافد المختلفة للتاريخ في تأويل النص التراثي، فالنص لا يتضمن" **السياق التاريخي الذي صُيغ فيه مثل اللغة والنحو وأسلوب المؤلف بل يتضمن حقيقة أن معنى وصلاحية أي زعم بالمعرفة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالموقف التاريخي، لمن يقوم بالصياغة ولمن يقوم بالتقويم معاً** " [6] .

يمكن إلحاق اللغة والنحو وأسلوب المؤلف، بحقب تاريخية مختلفة ومتباينة بشكل أو بآخر، فقدرة الشعراء مثلا على صياغة لغة تخترق المجال الزمني الذي ينتمون إليه واردة لدينا، غير أن حقيقة أن النص الشعري – ينأى عن إبراز كينونته على أنه مشبع بموقف تاريخي على اختلاف نوعه– أمر لا يمكن نفيه في نظرنا، فالموقف التاريخي في ذاته إنما هو الدافع و الجدوى من تأليف النص الشعري في الأصل، لأن العلاقة التي تقوم بين النص وبين التاريخ في هذه الحالة هي مما يتحقق به النص في نفسه بوصفه معرفة فنية، فكما أنه ينتمي إلى جنس أدبي تم إنجاز عناصره عبر حقب تاريخية مختلفة، فهو يبث قيما متصلة بتراكمية معرفية وفنية ما.

من يقوم بالتقويم كذلك يحقق معارفه في خضم إعلان موقف ما، يتسم بالتاريخية، يمكننا تعليل هذا بالقول بأن الاحتشاد التقويمي للنص الشعري مثلا، والذي يبرز القيم والمواقف نفسها، لا يعبر من وجهة نظرنا إلا عن موقف تاريخي واحد لا غير من جملة مواقف متعددة يمكن اعتمادها من خلال النظر إلى النص عبر منافذ تاريخية مقصية أوعصية أو خفية أخرى، وإن هذه المواقع التاريخية التي تفضي إلى إقامة مواقف مختلفة ليست بأي حال لاتاريخية، إنها ولاشك تاريخية معرفية غير أنها مختلفة أو صادمة أو شاذة لاغير.

إن كل تأليف أو تأويل وفق هذا المنحى " **لا يتوقف على خبرة الأنا و لكن على العلاقة القصدية، فليس هناك خبرات معيشة إلا لأن هناك شيء معيش ومقصود**"[7] فإن التلاقح بين التأويل والتاريخ يُنتج إذا اقتضى الحال تواريخ فنية خاصة، تنبثق عن الذات المبدعة وعن مدى قدرتها على تفجير طاقات التاريخ باعتباره مجالا إنسانيا متناهي الرحابة وقابلا بلا حد للتوسع والتخصيص والاختلاف، فكل خبرة متصلة بالأنا، متأتية في جوهرها عن وجود فضاء تتحقق فيه، وهو ما يمنحها بعدها الخاص والتاريخي ككل.

---

[6] H-G.Gadamer ,Vérité Et Méthode les grandes lignes d'une herméneutique philosophique, trad fr Seuil, Paris, 1976 p. 7

[7] H-G.Gadamer ,Vérité Et Méthode les grandes lignes d'une herméneutique philosophique, p 82 , 83

الإصدار السادس – العدد تسعة وخمسون
تاريخ الإصدار: 2 – أيلول – 2023م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

على كلٍّ، إن هذا كله لا يقصي في نظرنا فكرة أن المعارف والإبداعات الإنسانية المستجدة التي يمكن التسليم بكونها معارف سابقة في زمانها ومكانها، ليست صنيعة ذاتٍ منعزلة مطلق العزلة عن وجودها، فإن الفصل هنا غير ممكن، كما أن أي زعم ينافي مثل هذا إنما يدحض ادعاءه مبدئيا.

يقول غادامير" **إن وجود الذات يتجاوز معرفتها بنفسها، ويترتب على ذلك ضرورة وعيها بالتراث الذي يمثل الشروط القبلية لهذا الوعي، أي أن تتعرف ذاتٌ على نفسها من خلال تعرفها على تاريخها**" [8] هكذا تغدو عملية التأويل رحلة ذات مبتغى متعلق بالغاية الأسمى المتمثلة في تعرف الذات على نفسها، حيث أن أي تأويل لا يفضي إلى تَعرفٍ، هو مجرد قراءة عبثية لاطائل منه، ولنسلم بهذا فرضا.

ينجرُّ عن هذا إقامة ميثاق غليظ حقيقي وواعد، بين التاريخ باعتباره وعدا كفيلا بتحقيق الذات لذاتها وفي كل أبعادها، وبين الأمل التأويلي الذي عليه أن يُفرد كل مهاراته للخوض في التنقيب داخل الخيرات الجمالية للفسحة التاريخية التي تزخر بكل ماهو إنساني، والتي تعلن على نفسها بأنها مرآة الذات الباحثة عن عوالم نفسها.

إن التأويل إذن مناط بتمثل التاريخ وباحتوائه، إذ أنه يحتوي هو في ذاته النصَّ التراثي، هكذا ليتسنى لنا ترك التاريخ يتحدث عن لسان رغبات الذات وأهوائها وتطلعاتها، فكل فهم ينبغي أن ينجز داخل التاريخي بوصفه عقلا محركا للإنسان.

إن مثار هذا القول مفاده " **أن الهرمينوطيقا هي تعبير عن الوجود الإنساني القائم على تناهيه وتاريخيته، مما يجعلها بحاجة لكل خبراته بالعالم وهذا ما يجعل من عملية الفهم شاملة** " [9] وإن خير ما يستطيع اكتناز الخبرات هو التاريخ، إذ أنه لما يقوّم الفهم يجعله أشمل وأكثر عمقا وحقيقة.

إن هذا الزعم أعلاه ليعلي من شأن النص حقا، فهو يراه تعبيرا أنموذجيا ومثاليا عن قيم عليا وأحداث مؤثرة ووعي كامن، فالمؤلف يغرف من معين هذا النضج التاريخي الباهر، أو على الأقل هذا ما ينبغي أن يكون عليه النص، وإن هذا أملنا فيه.

تنظر الهيرمينوطيقا إلى النص التراثي على أنه تمثلات راسخة لإسقاطات التاريخ الأشمل إذ هو وعي مكتمل الإحاطة بحيثيات الإنسانية.

[8] هانز جورج غادامير، تجلي الجميل ومقالات أخرى، ص07

[9] د عادل مصطفى ، مدخل إلى الهرمنيوطيقا : نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامير، ص .195

أهم سؤال يمكن أن يعترضنا هنا، هو ما الذي يدعو متلقي النص التراثي حقا إلى إلزامية التوحد مع المتلقين التاريخيين السابقين له، فالهيرمينوطيقا تدعو إلى " **اختزال الذوات في ذات واحدة، وإحداث التماهي بين الفواصل والحدود، ويتحقق هذا المقصد من خلال أدبيات الحوار بين القارئ والعناصر التاريخية"** [10] .

يكفل المتلقي النظر إلى النص من خلال منظار التاريخ المترامي الحدود والآفاق، والذي ينقل لنا المشهد النصي بكل أمانة، عبر تحولاته وتقلباته وتغيراته، وإن هذه الخصائص النصية التي يعمل فيها التاريخ عمله، إنما هي وثيقة الصلة مع مكامن النص والتاريخ، فهي لا تحيد عن إعطاء صورة حقيقية عن النص، وعما كانه، بغض النظر عن الجدوى والجدارة والمصداقية.

إن المتلقي وفي الحالة هذه، يكون متحاورا فذا مع العناصر التاريخية، لفهم النص، والتاريخ، وجمهور المتلقين الذين سبقوه.

يقول غادامير " **إن أي إنسان يجرد نفسه من امتلاك الأفق التاريخي المحدد للأصل الذي يتكلم منه التراث يسيء في الواقع، فهم دلالات المضامين التي ينقلها ذلك التراث"** [11] وهذا يجعلنا نفهم المراد من النص عند غادامير، إن النص عنده هو أفقه التاريخي الذي ولد فيه ومنه، فهو يعبر عنه ويسعى إلى إبرازه و نقله، وإعادة إنتاجه وإنتاج جمالياته الخاصة بشكل لغوي – تاريخي.

إن في هذا دعوة حقيقية وجريئة من عند غادامير إلى ضرورة الاطلاع على الأفق التاريخي لأي نص تراثي قبل محاولة اقتحامه قرائيا، هذا لمن يسعى إلى إقامة قراءة تلتمس الحقائق والدوافع والمقاصد، وهذا ليس من أجل تحصيل تاريخي فحسب، بل ولاستجلاب الجماليات المغيبة في طيات المؤلف والقارئ التاريخيين، وإن هذا نفسه ليجعل المتلقي في حالة بحث دؤوب عن أزخر المراحل التاريخية جمالية، وكذا أهم خصوصيات الجماليات والوعي عبر تاريخ القراءة والتأليف، بغية الإفادة من بنياته الجمالية التي تكون عرضة للطمس تحت خطى الحقب التاريخية، لاعتبارات مختلفة، لأجل صياغة أفق قرائي خاص ومستجد، حيث " **إن المعنى الحقيقي لأي نص لا يعتمد على حيثيات المؤلف وإنما يتحدد أيضا وفقا لحالة المؤول التاريخي، وهذا ما يجعل الفهم صيرورة إنتاج مستمرة، لا مجرد إعادة إنتاج** [12] هكذا يتم الاعتماد على المؤول التاريخي، ليس بغية في إقصاء المؤلف، ولا في التقليل من

---

[10] ينظر: لزهر فارس، التأويلية عند غادامير، قراءة في المرجعيات والمنظومات والآليات، ، مجلة فتوحات، ع02، جوان 2015، ص197

Gadamer , (H.G) . Vérité et méthode, 144-145[11]

[12] هانز جورج غادامير، الحقيقة والمنهج، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، تر: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، دار أويا للنشر ، ليبيا، ط1، 2007، ص 40

قيمته، وإنما لمنحه ما يستحقه من اهتمام لا أكثر ولا أقل، فإن المؤول التاريخي نفسه أقدر على نقل حيثيات المؤلف من المؤلف نفسه أو من خلال البحث عنه خارج مقتضيات المؤول التاريخي.

2- دائرة الوعي الجمالي:

يلح **غادامير** على دمج الفني في سياق تاريخي أشمل، فالفن يمتلك قدرة هائلة على اختراق حواجز التاريخ، نستنتج من هنا، كيف تبرز إرادة **غادامير** الطموحة في الوقوف على الحقيقة من خلال النص بوصفه وثيقة تاريخية لا يلحقها التزوير، فالنص ماهو إلا نسخة مطابقة لأصلها التاريخي.

هكذا يصير تلقي الجانب الجمالي من النص التراثي ممكنا لدى المتلقي من دون تدخل أية وساطة، ومن غير الحاجة إليها " **فالدائرة الجمالية عند غادامير هي ذات صلة بالبعد الأنطولوجي للقراءة أي إمكان معرفتنا لها بشكل مستقل عن كل تجربة**"[13] .

إن القيمة الجمالية الكامنة داخل النص هي ذات صلابة ومناعة تحول دون تشويهها وتحويلها، إنها قادرة حقا على تخطي تدخلات التاريخ والإنسان معا وعوامل التعمية والتحوير، محافظة على أصالتها وجوهر مقولاتها وحقيقتها، فهي متأصلة في الإنسان لكونه ذاتا وجودية تقيم علاقة مرنة وتقبلية للمعطى الفني.

ثم إن القراءة انطلاقا " **من الدائرة الجمالية تعتبر نوعا من القراءة الإسقاطية كما يقول تودوروف، بمعنى التعامل مع النص كما لو أنه وثيقة تاريخية يحاول القارئ إثبات صحتها** " [14] وإثبات الصحة هنا يعني التماهي الحقيقي والفني مع الملابسات التاريخية الدقيقة التي أفضت إلى إخراج النص على صورته التاريخية التي تصوَّر عليها، والتي تتشاكل في ماهيتها مع أهم الأسس الجمالية لهذا النص.

أما فيما يخص مؤلف النص، فإن السعي نحو تمثل تجربته بكل تفاصيلها، وبما أنه سعي " أنطولوجي" تفسيري حثيث، يمكننا من تفحص الظاهرة النصية متجردين من أية تجربة ذاتية سابقة، فهو يعدنا ببعد جمالي خاص ومغاير، فكما يقول غادامير : " **فأن تؤول –في اتجاه ما– هو أن تعيد إبداع النص**" [15] إن هذا يهب لنا الخيار الثاني المهم في إنتاج الجماليات، بعيدا عن الخيار الأول

---

[13] ينظر: محمود أحمد العشير، الاتجاهات الأدبية والنقدية الحديثة عند إمانويل كانط، المكتبة الفلسفية ودار التنوير ودار الفارابي، بيروت 2009، ص98.

[14] عبد الله الغذامي، الخطيئة والتفكير، دار سعاد الصباح، الكويت، ط3، 1993، ص،ص، 75، 76

[15] Gadamer , (H.G) . Vérité et méthode.p40

المتمثل في كون أن تأويل نص ينتمي إلى زماننا وعناصرنا الثقافية يمثل و في أسمى وأبعد مساعيه اكتشافا لأسس جمالية ننتمي إليها بشكل أوبآخر، إذ أنها تعزى إلينا بكل مكوناتها وترسباتها وأعماقها.

يقر التعالق مع المؤلف هنا الداعي من كون الجماليات النصية بعيدة عن ميزة التجريدية، فهي تنقل فضاءات خارجية أخرى خاصة بالمؤلف، ذات محمولات معرفية، وأبعاد تنقل الحقيقية عينها.

إن تتبع أثر تجربة مؤلف النص التراثي والتي تقربنا من الوعي بأسسه الجمالية المتمايزة عن أسسنا باعتبار تباعدها الزمني، لتعد إحرازا جماليا منقطع النظير لما هو مكفول للقارئ التاريخي، من غير قطيعة مع ما يمده لنا هذا الإطار القرائي من عزيمة على تلمس الجوانب التي امتزجت معها القيمة الجمالية للنص. وهذا كله يضعنا أمام التاريخ كقيمة مسيطرة على إنشاء ماهية المبدع.

لاشك أن" **البحث عن المعنى المتستر خلف الأشياء ومساءلة القصدية الكامنة، خلف الجزء الظاهر من الظواهر، هي مهمة معقدة تستحق أن تُنعت بأنها هيرمينوطيقية"** [16] لأن تعقب القصدية هو حق مشروع، وهدف ملازم لأي قارئ طموح يقف أمام نص تراثي سواء كان هذا النص منفتحا أو منغلقا، فكل نص هو عبارة عن دعوة منفتحة على الاحتمالات القرائية التي قد يربط القارئ بعضها بما هو للمؤلف.

كما أن " **إن تجربة الفن هي لقاء بيننا وبين هذا العمل الفني الذي يمكننا من تجاوز خصوصيتنا الفردية للكشف عن ذلك النوع من الحقيقة والجوهر التي نستشعرها بكيفية مبهمة، في حين يكشف عنها العمل تحت شكل أنضج من التعبير"** [17] لأننا كمتلقيين للفن لسنا مدعوين إلى النص لتحقيق خصوصياتنا الذاتية فحسب، بل ولمنح الفرصة ومن خلالنا لمؤلف النص، لأن يدلنا بمقاصده –الممكن الوصول إليها– على مناطق مجهولة في طاقاتنا القرائية، لنقع بذلك على جماليات القارئ الثاني الذي يحبذ أن يكونه مؤلف النص الأول، ليس بعيدا عن النص الذي يعكس لنا طبيعة المؤلف اتكاء على الحالة التاريخية له.

إن هذا الدأب أعلاه تتعقبه بلاريب، الكثير من العوارض الموضوعية، لعل أولها أن النص في ذاته لا يحمل فيه شيئا غيره " **فعندما يفصل النص عن قصدية الذات التي أنتجته، فلن يكون من واجب القراء ولا في مقدروهم التقيد بمقتضيات هذه القصدية الغائبة**

---

[16] جون غروندان ، المنعرج الهيرمينوطيقي للفينومينولوجيا ، تر:" عمر مهيبل ، الدار العربية للعلوم ومنشورات الاختلاف، الجزائر ، 2007 ، ص 49.

[17] ينظر: معافة هشام، التأويلية والفن عند هانس جورج غادامير، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، لبنان، الجزائر، ط1، 2010، ص35

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي

الإصدار السادس – العدد تسعة وخمسون
تاريخ الإصدار: 2 – أيلول – 2023م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

" [18] فالنص التراثي خاصة، وإذا تعلق الأمر بالتأويل هو وطيد الاندماج بمتلقيه أكثر مما هو متصل بمؤلفه، حيث يبدو هذا الاتصال وثيقا بشكل لا يمكن نفيه، كما يبدو أمر انفصال النص التراثي عن مؤلفه قويا أثناء وفي لحظة ذلك الالتحام الثنائي بين المتلقي والنص، إنها علاقة تظهر وبشكل يصعب تفنيده، أنها تعترضها استحالة حقيقية في أن تكون علاقة ثلاثية ينضاف إليها عنصر المؤلف كطرف طبيعي، والذي يكون غيابه مسيطرا بشكل ملموس أثناء التلقي التلقائي والطبيعي.

إن استظهار النص وإضافة المؤلف إليه كعامل مدمج مؤثر أثناء عملية التلقي، ليظهر ذلك الشرخ الفادح في التواصل مع النص التراثي، لأن حضور المؤلف المقحم يصير مثبطا حقيقيا، وحاجزا موضوعيا في وجه الاسترسال في عملية الفهم الطبيعي، ورقابة غيرية تفسد عملية التلقي من أساسها.

إن ما سلف ذكره، لصيق بما يعلنه غادامير قائلا " **إن الاختزال التأويلي لمعنى المؤلف غير ملائم كعدم ملاءمة اختزال الأحداث التاريخية إلى مقاصد أبطالها**" [19] وإن مبلغ دلالة هذا عندنا هو وجود النص في ذاته، فهو عقبة حقيقية وموضوعية في وجه المؤلف حيال ادعائه امتلاك دلالات النص التراثي واحتكار الفصل فيها، فنحن وعلى الدوام –ولحسن الحظ– نمتلك النص كوثيقة تقف على حيادية بين المؤلف والمتلقي، وثيقة يتم الاحتكام إليها وإلى حاضنتها التاريخية ولغتها، وإلى عناصر أخرى كثيرة تضاف إلى المؤلف، هكذا ليصير هذا المؤلف وارثا شرعيا لنصه، لكن مع جملة ورثة شرعيين آخرين يحق لهم الحكم والتفسير والفهم والتأويل.

ثم إن المقاصد شيء ومثار قصديتها شيء ثان، إذ أننا " **نجد المتلقي له كفاءات لا تكون متطابقة مع مثيلاتها لدى الباث، وهذا التباين الطبيعي هو الذي يجعل المتلقي لا يعيد إنتاج الرسالة نفسها التي تلقاها، وإنما يعمد إلى تأويلها وما يحدث في الكلام العادي يحدث بشكل درامي في الشعر**" [20] فقصدية المؤلف في نصه لا يتعلق بنصه وذاتيته فحسب بمعزل عن باقي المؤثرات، فهما لا يمتلكان الحرية المطلقة في بث المعاني لوقوعهما تحت وطأة تأثير عوامل أخرى لا يمتلكها القارئ لتكون قراءته هي نفسها قراءة المؤلف..

يقول **غادامير** موضحا في هذا الصدد" **إنّ قصائد تسيلان تُشبه تلك الرسائل التي توضع داخل قنينة لتُلقى في عرض البحر، فهو لا يعنيه من يكون ذلك القارئ الذي يمكن أن يعثر على القارورة والرسالة معًا، ورغم ذلك، فالرسالة ما إن تقع بين يدي هذا القارئ**

---

[18] أومبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدارالبيضاء، ط1، 2000، ص159

[19] هانز جورج غادمير، الحقيقة والمنهج: الخطوط الاساسية لتأويلية فلسفية، ص496

[20] محمد الولي، السيميوطيقا والتواصل، مجلة علامات، المغرب، ع16، 2001، ص94

المجهول، حتى تحمل دعوة للتواصل، فلابد للشعر أن يقول شيئا ما، بغض النظر عمّا يُمكن أن يقوله" [21] الحقيقة أن كون المؤلف مجهولا في مثال غادامير عن **تسيلان** هنا يبدو افتراضيا، إلا أن هذا يمكن تعميمه على كل النصوص التراثية وغير التراثية حتى تلك التي نعرف مؤلفيها حق المعرفة، فالتوقيع الذي يضعه المؤلف أسفل نصه، لايمثل سوى قيمة ثانوية خارجية عنه، وهو صنيع لا يليق بأي مؤلف حاذق وكبير، لا يمثل الاسم الموقع أسفل النص على الأرجح غير محاولة يائسة لادعاء ملكية النص لاغير، لأن أي نص قادر ومن دون اسم مؤلفه أسفله على تحقيق جمالياته وتاريخيته إذا استدعى الأمر، إن النص الشعري هنا يقول شيئا ما كما يدعي غادامير، مهما كانت المسافة الفاصلة بينه وبين متلقيه، فقراءة النص التراثي من قبل متلقٍ معروف على عكس ما قدمه غادامير كمثال، لا يقدم فارقا –عن تلقي القارئ المجهول- إلا ما قد يحتاجه القارئ المبتدئ الذي يصعب عليه تحديد قيمة النص من دون التعرف على مؤلفه، إن هذا المتلقي الهاوي لا يتمتع بمعارف ثقافية كافية لاستيعاب النص الشعري على ماهو عليه، لذلك فهو يفتقر إلى دليل يدله لمساعدته على الانتقال بين مستويات النص، ولن يجد كمثل معرفته بطبيعة كتابات المؤلف معينا على هذا، وإن هذه المزية في ذاتها لا تحقق قراءة خالصة، وإنما مجرد تصفح تغييبي ثنائي يقوم بين النص المغيب ومؤلفه الغائب.

يشير **غادامير** بمثاله السابق كذلك إلى معضلة التباعد الزماني الذي قد يكون بين القارئ المعاصر والنص التراثي مثلا، حيث أن قراءتنا لنصوص مزامنة لنا ومهما بلغت مرتبة الاختلاف فيها، لن تفضي إلى نزاعات وصدامات كبرى وجذرية على مستوى الفهم، وإن هذا ليس مرده إلى معرفتنا لمؤلفيها، بل إلى اقتراننا التاريخي والفكري والانفعالي معها، فهي لصيقة الماهية بنا لاعتبارات وجودية محضة، في حين أن النصوص التراثية، والتي نكاد نجهل مؤلفيها، أو تلك التي تلتبس عندنا سيرة مؤلفيها، فهي تقول ما شيئا ما، يضيف **غادامير** معللا وشارحا " **إنّ القصيدة هي التي تتكلّم وليس خبرات الشاعر، تبدو لي القصيدة المكتفية بذاتها والمتمنعة، زاخرة بمعنى أوسع بكثير من ذلك الوضوح الذي قد يتوفّر عليه القارئ من تأكيد الشاعر لمقاصده** "[22] بهذا تصير تلك الهوة السحيقة التي بين المتلقي والنص التراثي المبدع مجرد تحليق سامق، فإن قيمتها الفنية البالغة تجعلها ممتلئة بالجماليات المكثفة إلى القدر الذي يجعلها أكثر شعرية وتألقا.

لذلك فإن المؤلف الذي يعول على بريق اسمه لمنح قيمة لنصه، إنما يسيء إلى نصه حقا، فحقيقة أن النصوص الكبرى اشتهرت وراجت لأنها منسوبة إلى أسماء لامعة، تتهاوى ولا تصمد أمام الحقيقة الأكبر الماثلة في تاريخ كامل محتشد لتأثير القراءات على إضفاء القيمة الحقة على النصوص التاريخية الخالدة، بغض النظر عن مؤلفيها أكانوا صعاليك أو منبوذين أو هامشيين، هكذا تصير كل قراءة حقيقية هي تلك القراءة التي تنظر إلى أي نص على أنه موقع باسم مستعار مجهول.

---

[21] هانز جورج غادامير، من أنا ومن أنت، تحقيق حول باول تسيلان، تر: علي حاكم صالح وحسن ناظم، منشورات الجمل، ط1، 2008، ص 18

[22] هانز جورج غادامير، من أنا ومن أنت، تحقيق حول باول تسيلان، ص20

الإصدار السادس – العدد تسعة وخمسون
تاريخ الإصدار: 2 – أيلول – 2023م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

دائرة الوعي اللغوي:

تكاد تكون المستويات التي يدلي بها النص لمتلقيه، وبعيدا عن مستواها الدلالي الموافق للصدقية أو المناقض لها، المستويات الحقة التي يعول عليها التأويل ويستعين بها لإقامة مشروعه للقبض على الحقيقة داخل النصوص " **فالوعي التأويلي لا ينظر إلى الإشكالية اللغوية بمنظار منطقي أي مدى صدق ما تصدره من أقوال وأحكام، بقدر ما ينظر إليها كمسألة ترتبط بالفكر ومن ثمة كمعنى حامل للوجود**"[23] ومن هنا تتجلى قيمة لغة النصوص التراثية، إذ أنها ذات محمولات فكرية تبرز الوجود من خلالها.

إن هذه الثقة الهيرمينوطيقية في لغة النصوص والتي تبدو بأنه مبالغ فيها إلى حد ما ، تظهر بأنها مؤسسة وذات جدارة بالغة، إذا تتبعنا مسارات استدلالاتها وتقعيداتها في ما يخص كون اللغة حاضنا وفيا لأصل الفكر ومن ثمة لما هو عليه الوجود.

تفسيرا وتثبيتا لهذا المفهوم، نرى بأن النص وبما أنه لغة، هو تمثل مطلق لما هو عليه الفكر الإنساني بكل تلبساته وتشكلاته، فإن الإنسان لم يطوع لغته وفق ما تمليه عليه معطيات وإكراهات فكر ما، كما أن لغته لم تتكون على شاكلة قوالب فكرية خاصة، بل إن ما حدث قد يكون نقيض ذلك.

إن اللغة هي المكان الأصلح والأليق للتفكير "**يرى غادامير أنه لا يمكن على الإطلاق أن نفكر في عملية التفكير خارج نطاق اللغة فالصبغة المادية للغة هي المكان والمعطى أين يمكن لكل تفكير أن يظهر**" [24].

يضعنا هذا قبالة حقيقة خطيرة وجلية، مفادها أن اللغة لا يمكنها أن تُعبِّر هي الأخرى خارجا عن فكرها، إنها تحوم فحسب في حدود ما تفكر فيه لا أبعد، وإن كل هذا يدمج ضمنها ولا يمكنه أن يصدر عنها إن لم يكن موجودا وكامنا فيها.

إن هذا يدل عندنا أن ماتقوله النصوص التراثية خاصة، هو ماهو حقا كامن فيها داخلها، فالفكر حتى ذلك الخارجي الناظر إلى اللغة والمتفحص فيها وبما أنه داخل نطاقها، لا يمكن أن يكون مناقضا لما تريد إعلانه " **لأن الإنسان يسيطر على لغته عندما يحيا بداخلها، ويجعلها تتحدث عن موضوعها، وتجعله حاضرا في فهم الحوار المكتوب وفي فهم النصوص أيضا**"[25] أي أن اللغة هي تماما ماهو عليه إنسانها وفكره، وإن هذا كله ليشعرنا بطمأنينية تأويلية حقيقية ونحن نقترب من النصوص خاصة التراثية منها، وبراحة تلَقٍ فائقة، لأننا لن نكون مرغمين على التفكير في أن اللغة قد تكون – لا نقول: لا تقصد ما تقوله– وإنما أنها لاتقول ماتقصده، وهذا

---

[23] ينظر: عادل مصطفى ، مدخل إلى الهرمنيوطيقا : نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامير، ص 241

[24] ينظر: سعيد توفيق، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2002، ص98

[25] ينظر: نفسه، ص، ص، 136، 137

ISSN: 2663-5798

إحراز باهر تجاه عملية التلقي برمتها. (إن اللغة قد تكون لا تقصد ما تقوله ومع ذلك فهي تقوله وهذا يعني أنه منها وهي منه، صادر عنها بقوتها لا نتيجة عجزها، أما ألا تقول اللغة ما لاتقصده فهو غير وارد).

إن العمل الفني ينتمي إلى اللغة أكثر من انتمائه إلى أي مؤثرات ومكونات أخرى، لذلك فإن الظاهرة الهيرمينوطيقية ككل إنما تعلن باعتبارها ظاهرة لغوية.

إن اللغة هي التي تمتلك إنسانًا، وليس الإنسان الذي يمتلك لغة، فاللغة هي الجامع الأكثر ملاءمة وموافقة وقدرة على التوفيق بين العناصر الإنسانية المشتتة والمتضاربة، ولأجل ذلك كانت هذه اللغة وبرغم احتوائها على إمكانية تفعيل الأحابيل الدلالية والالتواءات الفهمية فيها، ومع الوقت وعبر تراكمية استعمالاتية إنسانية أكثر جسارة على السيطرة على الحقيقة وأكثر مناسبَة لحفظها على ما هي عليه، بعيدا عن تدخل من يريد التغييرو التبديل، والنيل من الحقائق، فاللغة هي فضاء محصن وعلى قدر كبير –من التلاعب ومن التزوير، إنها عالم محمي وآمن معد خصيصا لمواجهة مكائد الزيف التاريخي والإنساني عموما.

يقول غادامير "**إن المرء يريد أن يفهم ما يُتاح للفهم لا غير، وإن الوجود الأجدر بالفهم هو اللُّغة** "[26] لأن اللغة مثلما هي جديرة بنقل الفهم، هي جديرة بالفهم أيضا.

إن صعوبة قول مانريد قوله حقا كما هو، داخل الشكل النصي، إذا افترضنا وروده، يستلزم في نظرنا ومنطقيا طرح صعوبة فهم التاريخ كما هو عليه في ذاته، وكذا استعصاء استطلاع الذات لذاتها ككائن معبر وواعٍ، غير أن إمكانية القول هي قضية تبرزها اللغة كوسيط تواصلي إنساني جوهري " **فاللغة هي النمط الأساسي لاكتمال وجودنا في العالم، والشكل الذي ينطوي على شمولية تأسيس وتشكيل العالم**" [27] فهي القادرة على نقل المعارف والحقائق دون غيرها، كما أن كل شكل من أشكال الحقيقة لا يمكن أن يتحقق خارج حدود اللغة وإمكاناتها .

كما أن تحديد عناصر التاريخ وجماليات التلقي في خضمنا هذا، لا يتم إلا عبر اللغة " **فإن المشكل الوثيق بين الفكر واللغة لايمكنه إلا أن يجبر الهيرمينوطيقا أن تصبح فلسفة، وينبغي أن تفكر دوما داخل اللغة حتى وإن كنا لا نفكر على الدوام باللغة نفسها ولا**

Gadamer Hans Gorge, herméneutique et philosophie , p.98[26]

[27] هانس جورج غادامير، فلسفة التأويل، الأصول، المبادئ الأهداف، تر: محمد شوقي الزين ، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2006، ص، ص،99، 100

ISSN: 2663-5798

يمكن للتأويلية أن تفلت من الزعم بالكونية لأن اللغة لا تنفصل عن العقل" [28] حيث أن إدراك العالم كما هو، مرهون بوعي العقل به، هذا العقل الذي لا يتمظهر كآراء وأحكام ومحصلات واقعية أو حتى خيالية إلا من خلال اللغة بجميع مستويات قابليتهاعلى التبيين.

وإن لغة النص التراثي تتفاوت درجاتها وجمالياتها، كما تتباين أساليبها، وإن هذا كله لن يقف حجر عثرة أمام سبيل الهيرمينوطيقا، فهي تعي بشكل عميق وتحييدي معضلة الإيضاح الشائكة وفداحتها، ولذلك فهي لا تخلط بينها وبين واقع توافر إمكانية لابأس بها للعبور إلى فهم لائق للموضوع الذي تعتزم اللغة نقله، يقول غادامير إن" **المشكلة الهرمينوطيقية لا تهتم بالتمكن الصحيح من اللغة، بل بلوغ فهم مناسب عن موضوع الكلام الذي يحدث عبر وسيط اللغة"**[29] هكذا وبهذا الفصل الاستراتيجي البارع للهيرمينوطيقا بين اللغة وفهمنا للموضوع الذي تتوسط بين المؤلف والمتلقي لنقله، يصير في مقدور المتلقي ألا يعبأ كثيرا ومن الآن بتطويحات اللغة البعيدة وانغلاقاتها وتعمياتها، إذا هو سعى إلى فهم الموضوع الذي تقترحه اللغة كما هو، بعيدا عن كل لبس.

حيث أن" **عملية التأويل في نظر غادامير جد بعيدة و منفصلة عن المؤلف و عن حالته الذهنية ، وعن نواياه و عن مقاصده وميوله غير المعلنة، إلى درجة أن فهم النص يتخذ طابعا إنتاجيا مستقلا عن كل ذلك و بالتالي فإن المعنى المفهوم يثيره النص بنفسه وبكيفية مستقلة تماما عن مقاصد المؤلف الأصلية"**[30] ويتم هذا عن طريق اللغة المستقلة تمام الاستقلالية عن مبدعها، إنها تجعل المؤلف في ذاته يلوح وكأنه هو الوسيط والناقل بينها وبين الروافد التاريخية التي تملأ نص المؤلف، الذي تسمو قيمته ومكانته بحسب قدرته على التجرد الكلي من ادعاء امتلاكه لمقاصده، وبقدر انمحائه واختفائه في اللحظة التي يعلن فيها عن نفسه بأنه مجرد لغته، هنا يأخذ المؤلف مكونات نصه بيد ليمنحها بيده الثانية للغة غير مُعمل في ذلك لأي تدخل يخصه دون اللغة والتاريخ الذي أخرجها وأخرجته.

---

[28] Gadamer, Hans Georg, La Philosophie herméneutique, avant–propos, Traduction et notes par Jean Grondin, 1ère édition, Paris, Presses Universitaire De France, 1996, p. 42

[29] هانز جورج غادامير، الحقيقة والمنهج، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، تر: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، دار أويا للنشر ، ليبيا، ط1، 2007، ص507.

[30] شرفي عبد الكريم ، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ط1 .2007، ص56